هنـــد أبـــو الشعـــر: عين على القصة، عين علـــى الوثيقة.. المؤرخة الأديبة

مفلح العدوان *

مفتتح:

شخصية موسوعية، مبدعة وأكاديمية، متعددة العطاء في الأشكال الأدبية والفنية: قاصة، وشاعرة، وفنانة تشكيلية، وهي صحفية وباحثة ومؤرخة.. كل هذه الحالات تتجسد في الدكتورة هند أبو الشعر، المتصالحة في التعامل مع كل هذه الأجناس الإبداعية والحقول المعرفية؛ لأنها تعيشها بكل روحها وفكرها وقلبها، تعيشها بكامل كيانها، وبوافر نشاطاتها ويومياتها، ذلك أن الفنون عندها تفضي إلى بعض، والعمل الأكاديمي فيه متعة وتجربة، والبحث التاريخي صار عشقًا ومشروع حياة، إذ إن المعرفة تثري من حالة الإبداع، والغوص في مناهج التاريخ وهي تتابع تفاصيله، وتدقـــق

* قاص وروائي، وكاتب مسرح وسيناريو، وصحفي، وباحث.

فيه، تجتهد في تقديمه، بكل أمانة، على الرغم من دقة المراحل التاريخية التي تشتغل عليها، لكنها تبدع في تقديمه بشكل راق وسلس ولافت.

إنها حالة من التعددية في الكتابة تسكن إبداع وعطاء هند أبو الشعر، يمكن توصيفها بأنها مزيج من العقل والروح والوجدان. وفق هذه الكيمياء الكتابية، وبشكل سهل ممتنع، استطاعت هند أبو الشعر أن تقدم المختلف المميز، باجتراحها معادلة دقيقة استطاعت من خلالها أن تبدع في حالة الفصل بين الأكاديمي الإداري، وبين المؤرخ الدقيق، وبين الأديبة الشفافة.

القصة.. وتعدد أشكال الكتابة:

لعل أهم ملامح تجربة الدكتورة هند أبو الشعر الإبداعية، يتمثل في كتابتها القصة القصيرة، إذ بين الأعوام ١٩٨٢ حتى ٢٠٠٦ كان زخم إنتاج القصة القصيرة ونشرها لديها، وهو الفن الدي عُرفت به هند أبو الشعر، وهي تحبه وتعبر عن ذلك دائمًا؛ لفرادة وخصوصية هذا الإبداع، فالقصة القصيرة فن ذكي ومكثف وصعب، ولذلك، على الرغم من صدور أعمالها الكاملة (الشعر، القصة القصيرة، النصوص، المشاهد المسرحية) بمبادرة من البنك الأهلي العام ٢٠٠٦، إلا أنها لم تتوقف عن كتابة القصة، مع انشغالاتها الكثيرة بمشاريعها الكتابية الأخرى، في مجالات الأبحاث والتأريخ والعمل الإداري والصحافة.

لكن كتابة القصة القصيرة، وعشقها هذا الفن الإبداعي، لم يقفا حاجزًا بينها وبين عطائها في ميادين إبداعية وبحثية أخرى، فهي دائمًا لديها الجديد والمختلف الذي تقدمه بشكل لافت ومبدع، وكأنها سَبرت أغوار نفسها الأمارة بالمعرفة والإبداع، ووعت قدراتها المخبوءة في أعماقها، وعرفت ذاتها وإمكاناتها، فوجهت طاقاتها ليكون هذا المنجز متعدد الأشكال، من

دون استلاب لجنس إبداعي دون غيره، أو حقل معرفي على حساب آخر، في سياق التاريخ والتوثيق والإعلام، إنها ترفض عبودية جنس إبداعي واحد، أو نسق رتيب من العطاء، فهي تكتب القصة، لكنها لا تنغلق داخل إطارها على الرغم من عشقها لها، وهي الفنانة التشكيلية، التي يحتل هذا الإبداع جانبًا منها، غير أنها لا تركن له، وقد كانت قبل ذلك ابتدأت بكتابة الشعر الذي انعكس على شعرية تعاطيها مع الكلمة بلغة راقية.

لكن هند أبو الشعر، التي تمتلك أدوات الكتابة والبحث والإبداع، تتجه في مرحلة من عطائها نحو الإعلام والكتابة الصحفية، حين يثيرها موضوع أو تستفزها قضية أو تثيرها شخصية، فتستقصي عنها وتقدمها للصحافة بروح المؤرخة وأدوات الإعلامية الأديبة، وقد استطاعت في هذه المجال أن تقدم كثيرًا من الشخصيات كسبق كشف تاريخي قبل أن يكون خبرًا صحفيًّا، لكن رغم نجاحها في هذا المضمار، إلا أنها لم تأسرها الصحافة، فهي محطة من محطات عطائها.

ولأنها كتبت الشعر مبكرًا، متلمسة من خلاله تلك الدفقات الإنسانية الكونية، فقد تسللت هذه الشعرية إلى لغتها في كتابة القصة والصحافة والتاريخ، هي لغة خاصة بها، طوعت المعلومة الجافة، والبحث الرصين، ليكون أكثر قربًا للمتلقي، هي لغة إبداع لدى هند أبو الشعر قابلة لأن تستوعب، في بوتقتها، كل الأفكار والإبداعات، تستخدمها في الصحافة، فتمزج فيها روح الإبداع مع الخطاب المباشر، وهي تشحن روح الأدبية وجماليات المبدعة مع لغة الأكاديميا، لغة العلم والأرقام؛ إذ تقدم المعلومة التاريخية بلغة نابضة، وخطاب فيه حيوية وحياة. ولعل هند أبو الشعر استطاعت، بخبرتها، أن تشكل لغة خاصة بها عند كتابتها أي جنس ومجال إبداعي أو صحفي أو أكاديمي؛ ليكون ما تقدمه هو كتابة خاصة تحمل بصمة لغة هند أبو الشعر.

أوراق الأجداد وذاكرة الوطن:

يُسَجل للدكتورة هند أنها قدمت للصحافة دراسات تاريخية بلغة ثرية بالمحتوى العلمي المحمول على خطاب ولغة قريبة من الجمهور المستهدف، لغة بعيدة عن مصطلحات المجلات المحكمة التي عادة ما تنشر فيها هذه الدراسات التاريخية، فهي ليست مقالة صحفية عادية، وبالتالي هناك لغة مختلفة اجترحتها الدكتورة هند لمخاطبة شريحة قراء الصحف اليومية.

هذا الخطاب، والتوجه لتقديم التاريخ والوثيقة، من خلال منابر أخرى غير الكتاب، والأبحاث الأكاديمية، كان لهند أبو الشعر السبق في الالتفات إليه، كأنها كانت تستشرف المقبل من الأيام حيث سطوة الصورة، وتغير مزاج المجتمع، والسبق المختلف في شكل التعامل مع المعلومة، وتسارع عجلة الزمن في العصر الحديث، فكان توجهها للصحافة بلغتها ووثائقها، وأبحاثها، وبقراءتها لمزاج المجتمع، وببحثها اللافت لأحوال الناس وذاكرة المكان.

وفق هذه الرؤية، أخذت الدكتورة هند تنشر معرفتها التاريخية في الصحف اليومية، ويمكن في هذا السياق استحضار ما نشرته في الرأي من حلقات متتابعة تحت عنوان (أوراق الأجداد)، بعد البداية التي كانت مع حلقات (ذاكرة الوطن)، وهنا يمكن التوقف، بتقدير، عند ما كتبته من اكتشاف وبحث حول واقع الهجرة الأردنية إلى العالم الجديد في أواخر القرن التاسع عشر، وما كتبته على حلقات في إطار هذا السياق، تحت عنوان (مذكرات مهاجر أردني)، كمثال، حيث قدمت، على حلقات، مذكرات خليل سماوي، وقد نشرت هذه الحلقات لاحقًا في كتاب عنوانه (أردني في المكسيك).

هنا لا بد من الإشارة والإشادة بالبحث والكشف الذي يسجل لها، وأسفر عن استعادة الروائي الأردني عقيل أبو الشعر؛ إذ إنها بذلت جهودًا مضنية للوصول إلى تراث عقيل

أبو الشعر الروائي، من خلال بطاقات بريدية ورسائل وروايات شفوية وكتابات متفرقة، وعملت على البحث في ما توافر لديها من وثائق، ثم قامت بمتابعتها، والإعلان عنها، وترجمتها، ونشرها حول هذا الكاتب الروائي اللافت، الذي كتب بالإسبانية والفرنسية في وقت مبكر من القرن العشرين، بعد أن سافر إلى إيطاليا، والدومينيكان، وفرنسا.

بوح القرى.. ذاكرة مشتركة:

جانب من الكتابة لهذا المقال في هذا المقام التكريمي للدكتورة هند أبو الشعر، ضيف العام في مؤسسة عبد الحميد شومان، كان فيه حديث حول منجز المكرمة وشخصيتها، بما تستحقه، وهي أهل لذلك، وأعتز بكتابته، لكن في جانب آخر، على المستوى الشخصي، يحتم علي أن يكون جزءًا من كتاباتي، شهادة حول الدكتورة هند المبدعة والمؤرخة، بحكم صداقتنا الإبداعية، وتواصلنا على مدار أعوام في سياق الكتابة والبحث، وشراكتنا في لجان ثقافية وبعض المشاريع الإبداعية والبحثية، عدا زمالتنا في رابطة الكتاب الأردنيين.

لقد كانت هند أبو الشعر من أكثر المتحمسين لمشروعي الذي بدأته العام ٢٠٠٥ في جريدة الرأي؛ لتوثيق تاريخ القرى الأردنية تحت عنوان (بوح القرى)، وكنت أستشيرها كثيرًا في تاريخ بعض القرى، خاصة ما يرتبط بالمرحلة العثمانية، وكانت الدكتورة هند، برقي حضورها، تفيض علي بعلمها ومعلوماتها، وهي بحر في مجال التاريخ، خاصة ما يتعلق بالوثائق العثمانية، والتاريخ الاجتماعي للأردن في تلك المرحلة، كما أن تقديمي لتاريخ الوطن وقراه من خلال الصحافة التقى مع مشروعها في توثيق ذاكرة الوطن ووثائق الأجداد، وتقاطعت كتاباتي ولغتي في رواية التاريخ الاجتماعي مع رؤيتها في ضرورة تقديم التاريخ في الصحافة، وبلغة تبسط المعلومة، وتكون قريبة وسلسلة لدى المتلقي.

ثم إنني بعد سنوات من انشغالي بـ(بوح القرى)، عقدت النية على إصدار المجلد الأول من (موسوعة القرية الأردنية/ بوح القرى)، كان هذا في العام ٢٠٠٨م، وقد رحبت الدكتورة هند بالفكرة، ولم تمانع حين عرضت عليها أن تكتب مقدمة لهذا المجلد، حيث أكرمتني بتلبية طلبي، وأفاضت علي بكتابة مقدمة كثفت فيها رؤيتها في موضوع كتابة التاريخ الاجتماعي، وأشادت بمشروعي، لكن ما لفتني في مقدمتها لغتها المبدعة، وملاحظاتها الذكية، وتصريحها ببعض مشاريعها الكتابية، وجانب من أفكار عديدة حول كتابة ذاكرة الوطن.

كانت عتبة مقدمة الدكتورة هند أبو الشعر لـ(بوح القرى)، هو العنوان، الذي جاء كأنه عنوان قصة فيه تكثيف لذاكرة الأرض والإنسان: (رائحة الطابون والبيادر). هنا كسرت الدكتورة هند نمطية المقدمات الأكاديمية وعناوين الدراسات الجامدة. وهي، في مقدمتها، بعد أن تشير إلى تتبعي لتاريخ القرى وتحولات الأمكنة، وتحولاتنا معها، بلغة شفيفة تتماهى مع شفافية البوح، تعرج في كتابتها على مشروعها (ذاكرة الوطن)، فرحة بأن مشاريعنا تلتقي في توثيق ذاكرة الإنسان والمكان في الأردن، وهنا تقول الدكتورة هند: (تابعتك وأنت تتنقل من قرية إلى أخرى، قرأت كل ما نشرته في (الرأي)، وكنت أنتظر أن أراك لأطلب منك أن تجمعها في كتاب، كنت أريد أن أحذرك من الخطأ الذي ارتكبته ذات يوم قبل خمسة أعوام، عندما كتبت لمدة عام ونصف (ذاكرة الوطن) في الرأي العزيزة، ولم أجمعها في كتاب، سبقتني الصديقة (تريز حداد) ونشرت كتابًا يحمل عنوان (ذاكرة الوطن)، فوجئت بالطبع، لكنني هدأت نفسي وقلت: لا بأس، هذه ذاكرة وطن الجميع.. سأختار عنوانًا آخر.. وأنشرها ذات يوم..!).

وهي في الفقرة التالية تصرح بمشروع كتاب لها حول تاريخ القرى، سيصدر بعد أن يكتمل البحث فيه، وقد أشهرته في المقدمة حين قالت: (فرحت عندما جاءني صوتك عبر

الهاتف، ووضعت المخطوطة بين يدي، وطلبت مني أن أكتب لك (فاتحة) هذا المشروع، إذن، سأصارحك الآن بأمر ما، أنا الآن أكتب مشروعًا مماثلًا، نشرت بعضه في (مجلات محكمة) هو دراسة أكاديمية لقرى الأردن، وبعدما تكتمل سلسلة الدراسة سأنشرها باسم: (ريف الأردن في العهد العثماني). إنه مشروع يتلاقى معك، لكنه أكاديمي يتعامل مع ملكية الأرض والضرائب وعلاقة الدولة العثمانية بالفلاحين، مشروعي إذن يتلاقى مع مشروعك، يجمعنا على حب هذا الريف الطيب، القرى التي تحمل جذورنا، وتحوم فيها أرواح أجدادنا وأحلام الآتين..!).

بعد أشهر من كتابتها للمقدمة سيصدر المجلد الأول من (بوح القرى)، وعندما ترى الدكتورة هند أبو الشعر محتويات الكتاب مرة أخرى، لكن هذه المرة مع عشرات الصور التي ترصد زوايا مختلفة من قرانا، التقطتها في أثناء توثيقي لتلك الذاكرة الحية البهيجة، يستيقظ في ذات الدكتورة هند أبو الشعر نبض الفنانة التشكيلية، وقد كانت آنذاك مديرة لمكتبة الجامعة الأردنية، فتبادر باقتراح أن تنظم معرض صور في بهو المكتبة، يضم مجموعة من صور بوح القرى، وهذا ما كان، وافتتح المعرض آنذاك تحت رعاية الدكتور خالد الكركي حين كان رئيسًا للجامعة الأردنية.

الذات المبدعة:

وبعد.. فإن الدكتورة هند أبو الشعر، تشكل حالة لافتة في حضورها في أثناء الحلقات العلمية، واللجان البحثية، وفي إطار العمل الجماعي، هي دائما مبادرة تسعى، بجدية الباحثة وروح المبدعة، إلى تشكيل إضافة نوعية في المكان الذي تحضر فيه، وقد تزاملنا في لجنة توثيق تاريخ الأردن في وزارة الثقافة/ المكتبة الوطنية، وشهدت هذه الروح المبدعة الباحثة الخلاقة، وتلمست من خلال عملها في هذه اللجنة، وزيارتي برفقتها، ومعنا الدكتور محمد خريسات،

للأرشيف العثماني في إستانبول، تلك الجدية في تعاملها مع الوثيقة، وفي مصداقيتها ودقتها وحرصها، معرفيًّا وعلميًّا، عند انشغالها بالبحث التاريخي، والعمل الوطني، ولعل الكتابة هنا تكون مختصرة وغير وافية لما لدى الدكتورة هند أبو الشعر من روح مبدعة، والتزام علمي أكاديمي، وتجديد في التعاطي مع الوثيقة والمعلومة، هي في حرصها على المواءمة بين الإبداع والعلم، كأنها اليقظة دائمًا، عين على القصة والإبداع، وعين أخرى على الوثيقة، والعلم، والتاريخ، إنها كل هذه المسميات، والمعطيات، والذوات المتجسدة في روح مبدعة واحدة هي الدكتورة هند أبو الشعر، الأديبة المؤرخة، فلها كل التقدير والاعتزاز.